

## نكتب من أجل الحرية

بقلم: خليل احمد خليل

يكشف ، خاصة ان العلوم الانسانية الحديثة تؤكد ان المريض يتمثل الى الشفاء الذهني كلما وعى امراضه . وحتى اكون واضحا اكثر مع نفسي ومع قراء « الاداب » ، اوضح انني اكتب لاتحرر ، لاخطي نفسي ولاحظي بها في كتاباتي . فلست ابني الدفاع « الايديولوجي » عن أي شخص ، الا ان التخبط والعشوائية السائدين في بلادنا وعدم احترام حدود الاشخاص وتقدير حرياتهم وبالتالي مزج السياسة بالشعر بالاشتراكية بالعروبة بالاعلام الخ... وانتاج لوحة خامة لا تدل الا على مدى ضياعنا الحضاري وتشردنا الذهني وعدم نضجنا السياسي . كل هذه العوامل تدفعني الى الكتابة والرد . انا لا اذافع عن أي اتجاه في الشعر ، الا ان من حقني ان اقول رأيي ، وذلك لا يعني انني اؤسس دينا او افيم مذهبا ، فما نحتاج اليه حقا هو الانضباط وتقدير الانسان في مقامته ويجب ان نفهم كل شيء مفامرة ومحاوله . وان الفضل والنجاح هما وجهتا الطريق . مع الاسف اعود مرة ثانية الى الجهل ، رغم ان اللاحاح مفر تربويا ، الا انني اجدني مطالبا . فالجهل «الشعر والنثر والجهل» يعني جهل الاستاذ صبري حافظ بحقيقة الحركة الشعرية النثرية من ناحية ويعني جهله بحقيقة محتوى هذه الاعمال الفنية . اما الاخ الاستاذ مروان الخاطري فقد اجاد حينما رد ، لان هذا يعني اننا نحس بمسؤوليته خاصة واننا مستعدون للحوار - اي للتعرف وتبديل مواقفنا .

اوضح للاخ الخاطري ان خلافا وقع بين عدة تيارات : التيسار التعمص للتراث العربي الاسلامي بكل ما فيه ، والتيار اتعربي الاشتراكي والتيار العربي المثالي في الانفتاح على الخارج والمصر على تخطي الواقع العربي كليا . ولعل انسي الحاج وانا نعتبر نفسي منظرين او نعتبر كذلك ، الا ان هذا لا يعني انني اتبنى كل كتابات انسي الحاج ، وهذا لا يعني ابدا انني اذافع عن ارائه اتني يكتبها في « النهار » فهو وحده مسؤول عنها بالطبع . فحينما زار انسي الحاج باريس كتب في ملحق النهار ما معناه : ماذا يحدث لو ازلنا لبنان من الخريطة . وانسي منظره ، لكنه على حق في طرفه ، اذ ان ادعاءنا الفارغة وجهلنا العارم ادت بعضنا الى ان يستحيلوا ضفادع في مستنقع التاريخ . وانسي كما اعتقد رجل شريف وهو لا يهتم كما اعرف بالمشاكل السياسية بصورة رئيسية ، وهو على الاقل لم يكتب اعمالا ولا مقالات او قصائد سياسية . اما قصيدته « نشيد البلاد » المنشورة في « لن » الصادرة عام ١٩٦٠ ، فهي تعبير عن قرف خاص ضاق به انسي ، خاصة بعد ان كثر تجار الوطنية وصارت تباع الاسهم في البورصة . فيا اخ مروان الخاطري اهلا بك ، ونحن نعرف ان سوريا الجديدة ابدا نجحت رجالا مهمين في الشعر : سليمان ونزار ، الا ان هذا لا يعني ان نقد هذين الشعارين من الامور المحرمة . وهذا يفرض علينا ان نتخلص من جهلنا ، وافول لك يا سيدي بكل تواضع ان المقاطع الشعرية التي « تدعي » ان قائلها هو يوسف الخال هي في الحقيقة للشاعر انسي الحاج . واما ان تسألني هل هي لصالح الاستعمار ام لصالحنا كعرب قوميين اشتراكيين . افول لك هذه مشكلة معقدة . اذ ان التأويل يحمل شيئا من التفضيل . واذ كنا نريد الدفاع عن انسي فنقول انه اراد بذلك ان يتمرد على جو المواطنة المسموم والدليل على ذلك انه اورد في قصيدته صوت هؤلاء الادعياء الذين يجيبونه « - خائن » . فهذا عمل مقصود ، غايته تحرير الانسان من هؤلاء التجار . وانا شخصيا ارى ان هذه هي رغبة انسي الحاج الحقيقية ، رغم انني لا وافقه على طريقته السلبية في التعبير - اذ انها صعبة الفهم ، ولو عمد الى الطريقة الايجابية لتخلص من كل الاتهامات التي الصقت به ويسواه . واسأل الاخ الخاطري هل ترضى عن كل واقفنا بكل فضلاته وخزعلاتنا واوساخنا الاستعمارية ؟ طبعنا انت توافقني على ضرورة رفض هذا الواقع شريطة ان نعمل جديا على خلق عالم آخر ، ولعل هذا ما يحتاج اليه انسي الحاج ومعظم الضامعين في بلادنا مع شكري وتقديري .

في الحقيقة حينما نقاش يتغلب صوتنا الشخصي على صوتنا العلمي ، وهذا ناتج كما نفتقد عن ميلنا خاصة في مرحلة الشباب الى تأكيد وجودنا والدفاع عن حريتنا اكثر من تقصي ابعادها وتأمل جذورها ومضامينها . هذه المرحلة المليئة بالحماس لها رجوع خاص وافاق تتخطى نطاق العقل ، حيث الرغبات الربيعية تنسج وجها جديدا لحضورنا الانساني . انا ممن يؤمنون بالحوار . في الحياة الجماعية يستنى للفرد ان يتخلص من اخطاء كثيرة ، فاذا النقاش كاج ، الا ان الكبح قد يقضي على الجموح الذي نحتاج اليه في مرحلة تطورنا الراهنة . هذا الجموح الذي يفرض التخطيط الشامل لمشاكلنا المبررة . فبدرجة اولى ، نحن لا نستطيع ان نؤمن بان اصالتنا العربية قائمة على التصاقنا بشكل معين من اشكال الحياة القديمة . ان انفصال الموسيقى عن الشعر ، لا يعني سوى ان التجربة الموسيقية تختلف عن التجربة الشعرية . وان النقاد في الشعر لا يحدثوننا ابدا عن تجربة الشعراء الموسيقية . وقد يتبادر الى الذهن ان الحديث عن الاوزان والتفاعيل مهم جدا ، الا ان التوازن القائم بين الشكل والمحتوى لا يعني ان الموسيقى ضرورية في الشعر . لكن هل تخلو اللغة من الموسيقى وخاصة لغتنا العربية ؟ طبعنا لا . لذا فيحق للشاعر الذي يريد ان ينقل تجربة شعرية ، ان يهمل الطريقة الميكانيكية التي كانت تنسج مع متطلبات عصور مضت ، وان يتلاعب بامكانياته الشعرية ويقدم لنا الشكل الذي يحلو له . ان الانكماش والتمسك بالشكل التقليدي دليل على تردنا المستمر في الاختيار . صحيح ان الانسان يختار باستمرار وهذا الاختيار يفترض عودته الى قيم اجتماعية والى انفتاح شخصي يتبرعم فكريا ويظهر عمليا كعمل مبتكر . ان للانسان الحق في الابتكار وان اسطورة البدعة التي ما تزال تنخر ضمينا او عنينا اذهان الكثيرين في بلادنا هي دليل على ايماننا ايمانا كافيا بمقدرة الانسان على التقدم والابداع ، ونحن بالتالي ما نزال في مرحلة دينية من حيث التطور الثقافي - عدا بعض الذين شلوا بسبب جهدهم الفردي - . فكلمة الاستاذ خوري في عدد الاداب الممتاز « بعض الاصال العربية » . يا اصحاب الشعر الحديث « هي تعبير صادق عما يختلج فسي نفوس الكثيرين ، بعد ان صار التقليد وسيلة في ادعاء الابتكار . الا اننا نفكر ، بعكس الاستاذ خوري ، ان الهاودة والمحاولة في المصالحة بين التقليدي والابداعي هي من ميزات العصور الوسطى واننا كعرب مطالبين في السير نحو عالم جديد ، لا بد لنا ان ننضج تجربيا حتى نؤول الى حالة فكرية جديدة تتناسب مع حاجتنا الوجودية والاشتراكية . ان العودة الى الماضي او الرجوع لا يؤدي غالبا الا الى تكريس خاص للرجعية . اننا مطالبون بتخطي حياتنا القديمة ، وان كان التخطيط مثار كل الفضائح . انني اقدر الاستاذ خوري واشكره على كلمته اللطيفة وارجو ان يطبع علينا باضواء جديدة فيها الشيء الكثير من ريبنا الشرقي المنتظر .

اما عن الجهل ، فلا ادعي انني عالم بل احاول ذلك . وانا لست ممن يستخدمون وسيلة « جهل فبرك » لكن جهل الاخرين يجب ان

## رد على نقد

بقلم : نايف شرف الدين

من المؤسف حقا ان يطلع علينا ناقد مثل السيد سمير فريد بتمط جديد من النقد ، ان اتصف بشيء فانما يتصف بالهدم والنسف والسخرية ، لا بالبناء والتقويم والجدد كما تقضي مهنة النقد الحقة . والشيء المضحك في هذا النقد لقصة « الكه » هو تلخيصه الرديء جدا لها ، وعدم فهمها فهما تاما ، حيث هيا بعمله هندا فرصة تشويه القصة تشويها بفيضا .

ويبدأ الناقد العتيد بتلخيص القصة هكذا : « خرج نعيم بعد خمس سنوات من السجن ساعيا الى قتل لمياء ، وهذه هي زوجة القاضي الكهل ... الخ. » ولا اريد ان اتم بقية الكلام حيث اني مضطر للوقوف قليلا امام حقيقة تدفع الناقد بالجهل وبقلة الفهم والتزوير التعمد . ان لمياء يا حضرة الناقد ، ليست زوجة القاضي ، بل هي زوجة المختار ولست ادري من اين اتيت بكلمة « كهل » هذه ، فبالله عليك ايها الناقد كيف يمكنك ان تحكم على قصة حكما عادلا دون ان تكون قد قرأتها قراءة جيدة ؟ حتى لقد خلطت بين القاضي والمختار .

واعود الان للقصة ملقيا عليها ضوء التلخيص الذي تستحقه : نعيم صبي يتيم فقد والديه وهو ما زال صغيرا وقد تشرد لمدة ست سنوات باحثا هنا وهناك عن لقمة عيش . وساقته الصدفة الى منزل المختار حيث من عليه هذا الاخير بعمل في زريبة المواشي . ورآته زوجة المختار فاعجبت به ولنفوذها الكبير على زوجها رفته الى رتبة مراقب عمال واسكنته مسكنا جميلا . وفي احدى الليالي ، ونعيم مستلق في غرفته دخلت عليه لمياء ، وبانوثتها الفائرة ومداعباتها اللذيذة وتهديدها له ان لم يطاوعها وقع المسكين في حبالها ، فلم يستطع ان يقاوم جمالها او اربابها له بتخويفه من العودة لحياة الشرد والشقاء . وتشاء الصدفة ان يعود المختار من رحلته فجر احدى الليالي في اللحظة التي كان بها نعيم يهم بمفادرة غرفة لمياء ويرتبك ويقع على الارض فيحدث ذلك صدى في ارجاء المنزل . وعلى الفور تصرخ لمياء باعلى صوتها مستنجدة بالخدم لينقذوها من نعيم مدعية انه يريد اغتصابها محاولة بذلك تبرئة نفسها . ويقيد نعيم بالحبال ويرمي في ساحة الزريبة ويجتمع حوله اهل البلدة ويمطرونه بسيل من شتائمهم تزلقا للمختار الذي يقيدهم بديون لا يستطيعون اداها ، لذا فهم يخافونه . بل يحاولون دوما استرضاءه . ويصمم نعيم بينه وبين نفسه على قول الحقيقة للقاضي ولكنه نتيجة تردده وعدم جرأته لا يقول شيئا من الحقيقة ، ويكتفي بطلب الرحمة ، ويحكم عليه بالسجن خمس سنوات . وبعد انقضاء مدة الحبس يخرج مصمما على قتل لمياء ، بينما تقوم هي باحياء عيد ميلادها . ومرة اخرى ينتابه التردد وتخونه الجرأة ويتقاذفه حبه القديم للمياء فيمر موكب لمياء بسنم ويقادر نعيم كمينه وهو يجفف دموع القهر .

هذا هو ملخص القصة التي قال عنها حضرة الناقد انها «حدثت» وعن كاتبها انه « يعيش في فراغ فكري عظيم ، عليه اذا اراد ان يفصل شيئا ان يملأه بما يصير معه كاتبا ذا معنى » .

كنت اود لو تفضل حضرة الناقد العتيد فشرح لنا هذا الفراغ الذي يدعي انني اعيش فيه . وما الشيء الذي املاه به لاصير كاتبا ذا معنى . ان النقد هو عملية تنقيب جادة تؤدي الى اظهار القيم الجمالية والفنية من جهة ، والى اظهار المساوىء من جهة اخرى ، وفي آن واحد ، وبصورة خالية من الاحقاد ودافعة نحو التقويم والاصلاح والبناء الفني للقصة . وهذا ما لم يفعله الناقد .

واعود الان للقصة : ان شخصية نعيم بكل ابعادها وجوانبها شخصية موجودة في مجتمعتنا ، فهي ترينا عن كذب ثمرة الفقر اللعين ، واوضاع المجتمع الفاسدة التي تخرج الى الحياة اناسا ضعاف الشخصية

مترددن عديمي الجرأة يتسكمون هنا وهناك ليحصلوا على خبزهم المزوج بالذل والقدارة . فهم لذلك سهلو القياد متقلبو الشعور والماطفة اذا سقطوا في محنة لا يعرفون كيف يتخلصون منها .

وامثال نعيم هذا لا بد ان يكونوا دائما وابدا ضحية الطبقة العفنة التي يمثلها المختار وزوجته لمياء . فهذه امرأة الخاطئة بالوراثة لم يكن نعيم ضحيتها الاولى ، بل كان هناك ضحايا عدة قبله وسيكون ، ايضا ، ضحايا عدة بعده ، كما يتبين في القصة . وهذا الطراز من النساء تراه دائما يحصل على ما يريد ويمارس هواياته الشاذة بصورة علنية خالية من كل خلق .

ان المختار - وقد اتخذته نموذجا لهذه الطبقة الفاسدة - كان يعلم ان زوجته تخونه مع اكثر خدمه ، ولكنه كان يتجاهل ذلك طالما انه يجري بعيدا عن نظره . والا لماذا لم يطلق النار على نعيم عندما ضبطه في غرفة نوم لمياء وزوجته ؟ وهل هو صدق ادعاء زوجته فعلا ؟ ان المختار رجل جبان . كل هذه الطبقة تتميز بجنون مزمن . والسلاح الوحيد الذي يجيدون استعماله هو الخداع والظن بالظن بخنجر اصفرهم الرنان .

بقي ان نغف قليلا عند بعض الناس امثال الحاج محمود - فسي القصة طبعاً - الذي لا يتوانى عن المراوغة والدناءة والتملص لصالح المختار وهو عالم بان نعينا عشيق لمياء منذ مدة . ولكنه لا يجزؤ ان يدافع عن هذا المسكين ، بل يسارع ليكيل له الشتائم مدهانة منه وخبثاء لانه مدين للمختار بمال لا يستطيع سداده .

وبعد يا حضرة الناقد هل الممت الان بالقصة وهدفها ؟ ان كنت قد فعلت فجزاك الله خيرا . وان كنت ما زلت عند رأيك بالقصة فاسمع نصيحتي وتخل عن مهنة النقد لانها ستجلب لك المتاعب ووجع الراس !

نايف شرف الدين

الكويت

### آخر منشورات

## دار الاداب - بيروت

ق.ل

● دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي

٣٥٠ للدكتور عبد الرحمن بدوي

● تجديد رسالة الفران لخليل الهنداوي

● جومبي ( رواية ) لاديب نحوي ١٢٥

● الخيل والنساء ( قصص )

● للدكتور عبد السلام العجيلي ٢٠٠

● رحماك يا دمشق ( قصص )

● للدكتور سهيل ادريس ٢٠٠

## قصص العدد الماضي

يقلم : منير العكش

١ - رزئت القصة القصيرة في العالم العربي بفيض من فوران الأغرار ، ولاد بها المهزومون من تجربة الشعر والفنون الأدبية الأخرى ، يتنفسون بها على الناس ، ويرخصون هذا اللون من الإبداع ويتبدلون . كان بكورة العهد بالقصة القصيرة ، سرت لأصحاب المواهب الضحلة ان ينسلوا إليها ودفعت بالتكسبيين من عشاق البطولة ( الكيخوية ) الى تزييل هذا اللون من الإبداع وتجويف مفهوماته الجادة ، وإشاعة الفوضى فيه .

وقد نعرضت القصة القصيرة والشعر الحديث لهذا الداء معا ، ثم استنقام الدرب للشعر او كاد ، وطرده المرتزقة من حلبته ، فلم يبق الا صادم او ضارم ، لما توفرت له من المواهب الحية والجهد الثمر، والمعاناة الطويلة ، والنقد الصريح الجاد ، عد عن ذلك الى المنافسة الخطيرة التي هدت تجربة الشعر الحديث بالموت ، وحثتها على الصقل والتجويد . اما القصة القصيرة فما توفر لها ذلك ، وما زالت تخب فسي سراويلها البالية ، وسمور في اوزاع من المفهومات المتناقضة البهمة ، يستوي في ذلك جماعة القص وجماعة النقد .

ومن الواضح ان ارحص الفنون الأدبية في عدد الاداب الأخر ما سيق الى باب القصة القصيرة ، فالتربة التي بسقت فيها القصص الثلاث متنافرة من نحو البناء العضوي والنفسي ، ومن نحو المنطلقات النظرية لهذا الفن .

٢ - قصة « دخان أبيض للمداخن » رمز للاجتماعات التي تفصل بين عهدين ، واذان من المجمع المسكوني بانتخاب « بابا » جديد ، وقد احسن القاص في التقاط الرمز ، والتنبيه عليه في خلال عرضه ، وخلصه القصة :

« ان فريال نالت الثانوية العامة فمعها والدها من دخول الجامعة ، واستنفر لذلك مجلس العائلة لبحث المشكلة ، وفي انعقاد المجلس تهجم فريال كالاسد ! ولقي خطبة عصماء في تحرير المرأة ، فيتخاذل المجمع امامها - وان لم يصفق . لم تذهب فريال الى الجامعة ، وتعود الى البيت . ويأملها الأهل طويلا ، فلا يجدون اثرا لعض الثعالب والغناب! » والقصة امتداد لفن الروائي المحبوب !! احسان عيد القدوس ، الذي طالما أذنتا جمعته من قبل ، وطالما عاش المراهقون في خمسينات القرن يلفون سخفه ومفالمته ، وهي صورة لهجرة العالم العربي المزيقة الى المدنية في ايقع صورها ، وابعدها عن التطور الإنساني . وقد جاءت القصة نمطا للترك والتهمرد ، واسلوبا للتصور الخاطيء لمشكلة المرأة من نحو ، وحلها من نحو آخر .

وما كان يعنيننا هذا اللون من التفكير لولا ان انعكس على البناء الفني للقصة ، فالبلط هو القاص ، وليست « فريال » كما يلوح للعارض المستعجل ، فهي مغمورة ، لا يبين لها صوت لولا حديثها الخافت الذي استعرضت فيه اترابها ولداتها وجيرانها ، ممن تيسر لهن دخول الجامعة . وهي انثى كوكيها القاص من جبلة نزقة نشف عن رؤياه لسرحة مشكلته في ساعة المعاناة الكثيفة بالمواقف الحارة ، وخلع عليها كثيرا من نفسه وشعوره ، لذلك لا نستغرب ضياع ملامحها الجسدية والنفسية التي استقرقتها نفس القاص وجسده ، فالدفقة الماطفية طاغية على العمل الفني ، حجبت نفس فريال الممزقة وراء سيل من الخطابة الحامية والكلمات المرناة ، وافل ما بين يدينا من هذه الدفقة الخطابية :

« وتذف في وجههم احتجاجها ، وتعلن امامهم تحررها من رجعتهم من سلاسلهم الصنعة ، من اغلال تقاليدهم . . . ونكاد تصرخ بملء فيها : « انا حرة . . . انا سيدة مصيري . . . وتهب في داخلها ريسح ثورية هائلة لا تقاوم تدفعها بقوة لا تقاوم .

ثم يمضي في جزء آخر :

« حرام عليكم . في بلاد الناس يهيئون الفتاة لان تكون طيبينة أو مهندسة ، أو عائلة ذرة . . . اما انتم فتريدونها ضلعا كسيرات تدلون عليها دائما بالتفوق والحماية ، وآلة صماء للتفريخ ، ووعاء للجهل والفرغ ، وفرورة للطيب والسلوى النافهة » .

ولا ينسى القاص ان يستعرض على لسان البطلنة تاريخ الحركة النسائية ونواخب النساء في العالم العربي بحماسة مفرطة ، ولكنه يذهل عن عرض ذلك في المجتمعات الغربية ! .

اما انشاء الفني للقصة فهو افضل الابنية الثلاثة لقصص العدد ، واكمل النماذج التي عرضت ، فالقاص متمكن من اسلوب العرض فسي اهلاله وحيكته وحله ، واسلوبه يجذب اقرأء اليه ، ويعتمد على الوصف التسمي المباشر للعواطف والأشياء ، بلمسها لمسا كحسو الطائر ، ولا يلبث طويلا عندها ليتعمقها ، كأنه منوحس على قوات الدفقة الماطفية - محور القصة . ولو انه كتبها على مهلة من امره ، وهدأة من عواطفه لاحسن وأجاد .

ولعل هذا النموذج من كتابة القصة القصيرة مسن أقدم النماذج التي عرفها الأدب العربي الحديث وهو أقرب الى ما يعرف بـ « الحكاية الواقعية » .

٣ - اما « الحزن . . . والعيون الصغيرة » ، فليست قصة أبدا ، ولا ضمير عليها ، فهي تنمي الى فن ارفع من فن القصة القصيرة ، واكثر الذي افنى فيه نفسه وحسه ان يستنفره جمود القصة القصيرة ويشووه . حساسية ، واطن « عبد الرفيع الجوهري » لا يريد لهذا اللون من الإبداع فحديثه اقرب الى الشعر الموحى ، وانصاله بالأشياء المصغيرة مسرف في الحساسية ، فهو واع لجولان الحياة في جوانيته الحزينة ، يراقب ببصيرته المرفهة انفعالاته مع الوسط الخارجي ، ثم يخرج نلك الانفعالات في اطر لونية ، واضحة نارة ، وضبابية نارة أخرى ، وفي الحالين كليهما تجد لوحات من صناعة فنان اصيل مبدع .

لقد استطاع ان يخلق الجو الذي يريده تنفسه بوضوح ودونما مواربة ، ومن غير ما كلفة ولا صناعة ، فحين يمنح القارئ هذه الصور المثورة المتعالية ، انما يريد ان يطلعك على سر خبيء في مطاوي الصور ونواهد الحروف ، فاللوحة عرض ظاهر ، اما السر فهو القصد المنشود . ولعله « ماما » الحزن التي عناها بقوله :

« هناك بعض الاطفال يحزنون حزن الموني ، حزنا اعمق من حزن الكبار ، ولكن اخي الصغير لا يعرف كيف يحزن ، يبكي بدموع كبيسة صافية ، ولكنه سرعان ما يتعقب فراشة حائرة في فضاء الدار او نحلة ، او حتى ذبابة فينسى دموعه ويسألني عن « ماما » هذه النحلة ، عن « بابا » هذه الفراشة ، ولكني انا لا اجد من أسأله عن « ماما » الحزن . ان الوحدة العضوية غريبة عن هذه « الإبداعة » ، فلا اتفاق بين لوحاتها في الظاهر ، والكاتب سريع اللفز ، متوثب الفكرة ، جملته قصيرة محترفة ، وافكاره ينضحها من جوانية ممزقة ، لذلك لا نستغرب هذا التمزق العضوي الظاهر . ولعل سحابة الحزن التي تنظم العمل الأدبي قد اشاعت فيه وحدة نفسية قوية .

نستظهر على ذلك بوحدة الألوان التي يختارها « عبد الرفيع الجوهري » لاني استعرضت الألوان المنتشرة جميعا وذهلت . القطة : رمادية . اطافرها : مائلة نحو الزرقة . عربة السفر : طويلة مطفاة . الدرب : مظلم . الخاطر : أسود . الشعر : مائل نحو السواد ، وهي جميعا ألوان حالكة مطفاة حزينة تنتمي الى فصيلة « الزرقة » ، ولا اظن ذلك مفتعلا ، وانما أقول : ان ظاهرة الحزن فد اطفاة لونه بعفوية سمحة منسرحة .

اما البقعتان اللتان شذنا عن هذه الفصيلة ، فهما للزينة ، الاولى : قطرات من الدم القاني على يدي اخيه الصغيرتين ، والثانية : ضوء منبعث من عيني فطنه الحزينة في الظلام . فهو لا يستمد ألوانه من ضوء الشمس او من مادة الحياة النابضة ، وانما يستمد من المشاركة الوجدانية بينه وبين عيني فطنه الحزينة ، او في قطرات الدم المعبرة عن

الموت في ابعش صورته .. صورة الذبح . وهاتان الصورتان مثال لتمزق الوحدة العضوية ، وظيفان الوحدة النفسية .  
ان (( الحزن .. والعيون الصغيرة )) غنية جدا بالمواقف الرومانسية ، ولا ادري لماذا يحمل بعض النقاد عصيهم على (( الرومانسية )) ، كأنهم يتصورونها لونا من التعبير ، او اتجاهها في الادب ، او مذهبها يتجهه الفنان ، وهم لا يعلمون انها - بالاضافة الى ذلك جميعا - تعبير عن سلوك نفسي ملهوب ، ضارب في اعماق الانسان ، وليس مفروضا مسن الجارج . وكما يحز في نفسي ان يكون وراء هذه الظاهرة موقف فكري مسبق .

واخيرا . هل يشكل هذا العمل الفني الرائع قصة قصيرة ؟ .. ابدأ .. انه تصور خاطيء للقصة القصيرة .. سمه ما شئت خاطرة .. ابداعه .. شعرا مطلقا .. ، ترجمة ذاتية .. . لانه لا يمكن أن نطلق على عبارة مزوطة ، وصورة ملونة ، وكلمة منمنمة ، ومشاعر مضطربة ، وخواطر حزينة مترعة اسم القصة القصيرة .

{ - وعلى النقيض من هذا الجو الصبايبي الرائع ، وهذا الحزن المترف ، وهذه الصور الصادقة ، تطف القصة الثالثة وكأنها تقرير سياسي مسف ، يمتد في الزمان العريق السى سفيربرك )) .. خمسون عاما وهذا التقرير يفور في نفس القاص ويقلبي ، وخلصته :

(( ان الدولة العثمانية القذرة بعجت الاستقلال الذاتي للبنان ، وجندت (( الطبيب )) الشجاع في جيشها ايام الحرب العالمية الاولى لحاجتها الى الاطباء . وسبق انطبيب السى (( طويراق فلعة )) فوصف مساكنها القذرة واهلها البائسين ، وامامها السذي يعد مخاليق الله للجيش المظفر ، ثم اكد لنا - على عادته - ان عددا كبيرا من ابناءها غير شرعيين ، ووصف لنا عمله فقال : (( ساعة اقصيها في الصباح على الوقوف مع زبائني .. وافضي الساعات الاخرى في )) اكل وشرب وطق حنك )) مع رفاقي الضباط ، وليذهب الطب كعلم الى الجحيم )) .

وتنتهي هذه الخلفية النفسية للقصة ، ان هذا الوصف الخارجي المتعمد ، يريد به القاص ان يهيء لعملية اشمئزاز وقرع عام وليستطيع ان يقدم بين يدي ( غايته ) من هذا التقرير ما ينفذ به الى قلوب القراء . ولكن هل يوفق ؟ .

بعد ذلك ، تصدر الاوامر ينقله الى (( زيتون بيلي )) مع رفيقه (( المهرج )) ( شريف ) الذي لا تعرف عنه سوى انه يشارك الطبيب الشجاع في كراهية بني عثمان ، وفي منتصف الطريق نبدأ الازمة .. يعرضهم مشهد (( عصر القلب عصرا )) ، فورا الصخور نهر من بول ، وبحر مسن فيء ، وتلال من فمل ، واسراب من ذباب نفات في غارة وحشية على فتى دون العشرين ، اعزل من السلاح اسمه في المتن (( احمد اوغلي محمد )) . ويتبين للطبيب الهمام ان الفتى فار من الجندية العثمانية ، فيسر جدا ، ويترك صديقه المهرج شريف عنده ليذهب السى المسكر القريب ويحضر له علاجا . ويركب الحصان الذي لم يجد ركوبه في حياته ( ! ) مع انه حدثنا من قبل انه ركب عليه (( خمسة وعشرين كيلو مترا )) ، وفي المسكر العريب يقابل القائد الذي سمع عنه خلال هذه اللوحة العاجلة انه مولع بمعاينة الفنان ، ويقص على القائد قصة الفتى ويطلب منه العون ، ويتجهم القائد قليلا ثم يعطيه الدواء السلازم ، ولا ينسى الطبيب هنا ان يسب الدين الذي يحكم به بنو عثمان هذه البلاد . ثم يعود الى الفتى الغاز ليجهده ميئا ، ويدفنه مع صديقه المهرج ، فيس ترتيلة حلوة من كيل السباب والشتائم )) .

هذا هو موجز التقرير السياسي الخطير ، وهو يشبه في المنطق النظري حكاية (( دخان ابيض للمداخن )) ففي الاثنان حماسة مفردة لموقف مسبق ، ولكن الموضوع الذي ما زلنا نعاناه الى اليوم في تلك القصة ، هو في هذا التقرير من نبش الدفاتر العتيقة ، وكلاهما يعالج قضية من زاوية شعبية متخلفة سطحية ، لا تعرف اتزاناً ولا روية . ان العواطف الاينية التي اتسمت بها القصة الاولى لم تهدأ هنا ولم تعرف قرارا ، برغم قدم التجربة وعمرها الذي يكبر الاولى بخمسين عاما ، فهي

عواطف مخمورة مبيته ، ترجع الى الحرب الاولى ، لذلك فقد عانت القصة من نفس ( الانفلات ) العاطفي ، وارهقت بتحيز لا مبرر له ، لان المشكلة التي اراد ان ينكأ جراحها قد طواها الزمن وعفى عليها ، وغيبتها حدائق العصر السريعة المتدفقة ، ولم يبق لها من اثر آلا فسي رؤوس الحافدين من مخلفات ذلك العصر ، وانا اصر على ان اثاره هذه المشكلة يرجع اول ما يرجع الى الحقد ، ثم الى التناقض الملحوظ بين العنوان والسطر الذي يليه .

اما النزق والتهمرد للذنان طفحت بهما نفس (( فريال )) فقد اضيف اليهما عند الطيب البطل نرجسية متعالية على المشكلة ، وتقدير لموقف فكري معين ، ومسايرة لعواطف مكبوتة ، وحقد ظاهر فسي قلب الصور والحقائق :

فالفرار من الجندية على سبيل التمثيل جريمة تستحق الموت عند كل انشعوب ، وموقف تنفر منه النفوس الصالح وتكرهه ، ولكن القاص لا يرى هذه الحفيظة ، بل انه يتجاوزها الى النقيض ، مسايرة لموقفه من بني عثمان ونظام حكمهم ، والامر سهل يسير ، لو يسر له شيء من التمكن في فن اللفظة ، ولكن حرارة الموقف لم يدع له شيئا من روية ، فالفرار حلال ومسموح به طالما انه من الجيش العثماني القدر ، ولذلك حشد لهذا الفتى المشاهد ( المأساوية ) الفجة ( جحافل الفيل والقيء ، والتيفوس والذباب والوحل والحمل والبول والتورم ومرض الفيصل ) وهلم جرجرة من امثال هذه المواقف المتفعل .

ان اسلوب التعبير مستعمر بهذا الموقف المسبق ، ففي الرفعة كلها اشنات منثورة من هذه الحماسة ، ولولا طيفان هذا النمط من التفكير على اسلوب التعبير لما جاز لنا نقده ، اذ للقاص ان يرى ما يشاء وان يعتقد ما يشاء ، اما ان يعود اليه ، اذ يبدو من الخلاف بين اسم الجندي في العنوان والتمن (( محمد اوغلي محمد )) في العنوان و (( احمد اوغلي محمد )) في المتن ( ان المؤلف قد سحب من درج وتأنفه السياسية ( فيشا ) مقلوطا ، سيتحفنا بغيره بعد حين .

ان الاسلوب العام للقصة منصرف الى الاحاح على الجمل الخطابية وكلمات القرف المكرورة المعادة ، والصفات الكثيرة التي يذرها في كل مكان ، فالسلطان رشاد : (( السلطان ابن السلطان السلطان محمد رشاد خان )) ( اكثر من مرة ) والامام : (( يعد مخاليق الله للدخول الى السماء )) ( كأنه راعي كنيسة ) . والقائد ( يحكى عنه بالسرا انه مولع بمعاينة الفتيان )) ، (( وانه يسوق القطعان البشرية للموت )) . بالاضافة الى النقول الكثيرة من كتب التاريخ التعليمية عن فتنة ( 1860 ) وعن بروتوكول الشرف الذي فرضته الدول الاستعمارية على الدولة العثمانية القذرة لمنح لبنان استقلالاً ذاتياً ، وعن الوطن الذي ( يلعب حكامه بمقدرات الانسان ويرقصون على قبور من يرسلونهم الى الموت )) ، ثم هذه الجمل الفجة من مثل ، (( ما اكفركم بالله الذي باسمه تحكمون البشر )) .

من ذلك يتضح ان للقاص ان يعتقد ما شاء ، اما ان ينقل ذلك الى القصة فلا بد له من ذوق ومران في العمل الفني ، ودراية باسلوب التلويع والتعريض البعيد عن الخطاب . وحين يكسبون المنطق النظري للقاص خاطئا في التصور ، مستعمرا للقوالب الفكرية الجاهزة ، والمواقف المسبقة ، فعليه لكي يقنعنا ، ان يمنحنا فنا تنسرب منه فكرته في تلاقية ويسر ، لا في خطابة تطن فيها السباب .

واخيرا ماذا يريد الدكتور جورج حنا ان يمنحنا فسي تقريره السياسي ؟ ايريد ان نشفق على الفتى الغاز الجبان لانه من الجيش العثماني ، اذلك مسوغ مقبول ؟ . ام يريد منا ان نصق على الاستعمار البغيض ؟ .. اننا لن نتخلف ، وقد بصقنا من قبل فسي وجه فرنسة وغيرها ، ولكن رطلا من بصاق لا يبني عملا فنيا .

ه - بالنسبة للمرحية اعتذر لآخي نديم عن تخلفي ، وارجو ان ارسل اليه النقد في رسالة خاصة مع تحيتي اليه في غربته .

مثير العكش

حلب